

نازحو إدلب



ما كان متوقعاً قبل بدء المعركة المندلعة في إدلب، بدأت موجات هجرة غير مسبوقةٍ منذ اندلاع الحرب في سوريا. وبدأ الناس بالنزوح، حتى قبل أن تبدأ المعركة التي كان يتحسب لها الجميع، في تركيا والدول الغربية، وطبعاً أهالي إدلب والنازحون إليها، بسبب تبعاتها المتوقعة، والتي سرعان ما ظهرت. وفي حين سعت تركيا، الخائفة من موجات هجرة جديدةٍ تصل إلى أراضيها، إلى وقاية المدينة من المعركة عبر اتفاقيتي سوتشي وأستانة، وعبر إقامة منطقة عازلة لإعادة اللاجئين إليها، إلا أن جهدها ضاع، وخاب أملها في الروس ضامني الاتفاقيتين. وأخذت فجأة تظهر مشكلة لاجئين جديدة، بدا المجتمع الدولي عاجزاً عن احتواها، وأظهرت المأساة التي تخللتها مدى نكران هذا المجتمع مأساة السوريين التي تتكرر دورياً.

وكانت هذه المعركة بمثابة الكابوس الذي أرق أهالي المدينة، حتى قبل وقوعها بست سنوات، بسبب كثافة السكان في المدينة، وبسبب كثرة التنظيمات العسكرية المعارضة للنظام، والتي تعمل في إدلب، وتتوزع تبعاتها بين هذا الفاعل الإقليمي وذاك، ما يجعل الصدام بينها قائماً فيزيد من عمق مأساة أهالي المدينة والنازحين، على السواء. ولكن الكابوس حلّ قبل بدء المعرك، وبدأ الناس بهجرة المدينة وريفها ومخيمات النزوح حولها، منذ بداية ديسمبر/ كانون الثاني الماضي، حين عرفوا أن الجيش النظامي وروسيا يستعدان للمعركة، ويحشدان قواتهما على تخوم المدينة. وفي شهرين لا أكثر، نزح حوالي نصف مليون من السكان، وازداد هذا العدد مع احتدام المعرك ليصل إلى 800 ألف نازح، بحسب إحصاءات المفوضية السامية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة.

لـجـأ النازـحـون إـلـى العـرـاء، عـلـى الحـدـود السـورـية التركـية، وـانـتـشـرـوا فـي الجـبـال الجـرـاء وـبـيـن الـبـسـاتـين، أـمـلـاً بـأـلـا طـاـولـهـم نـيـرانـ القـذـائـفـ الـتـي بـدـأـت تـنـهـال عـلـى المـنـطـقـةـ مـنـ شـهـرـينـ. وـلـكـنـ الـبـرـ الـذـي يـأـتـيـ فـي هـذـهـ الـفـتـرـةـ مـنـ السـنـةـ فـاقـمـ مـصـابـهـمـ، وـلـمـ تـسـتـطـعـ خـيـامـهـمـ الـهـزـيلـةـ أـنـ تـحـمـيـهـمـ مـنـ الـأـمـطـارـ أـوـ الـتـلـوـجـ الـتـي تـرـاـكـمـتـ فـوـقـهـاـ، وـلـاـ مـنـ الـبـرـ الـذـي قـتـلـ عـدـدـاـ مـنـهـمـ. وـمـنـ النـازـحـينـ مـنـ اـفـتـرـشـ العـرـاءـ، فـلـمـ يـجـدـ خـيـمـةـ تـقـيـهـ المـطـرـ أـوـ الـبـرـ أـوـ حـتـىـ هـجـمـاتـ الـحـيـوانـاتـ الـبـرـيـةـ، وـيـصـلـ عـدـدـ هـؤـلـاءـ إـلـىـ 80ـ أـلـفـ نـازـحـ، بـيـنـمـاـ لـجـأـ 20ـ أـلـفـاـ إـلـىـ الـأـشـجـارـ، لـيـبـيـتـوـ تـحـتـهـاـ عـلـهـاـ تـؤـمـنـ لـهـمـ بـعـضـ الـحـمـاـيـةـ. وـقـالـتـ لـجـنـةـ الإنـقـاذـ الـدـولـيـةـ، غـيـرـ الـحـكـومـيـةـ، إـنـ سـتـةـ أـطـفـالـ مـاتـوـ جـرـاءـ الصـقـيـعـ فـيـ الـأـيـامـ الـأـخـيـرـةـ، بـيـنـمـاـ ُـجـدـتـ عـاـلـهـاـ بـكـامـلـهـاـ مـيـتـةـ بـسـبـبـ الـبـرـ الـقـارـسـ الـذـي يـضـرـبـ الـمـنـطـقـةـ.

كـتـبـ إـحـدـى الصـحـفـ الـعـالـمـيـةـ أـنـ حـجـمـ الـأـزـمـةـ الـإـنـسـانـيـةـ صـدـمـ مـنـظـمـاتـ الـإـغـاثـةـ. وـلـكـنـ مـاـ صـدـمـ لـجـنـةـ الإنـقـاذـ الـدـولـيـةـ أـكـثـرـ أـنـ هـؤـلـاءـ النـازـحـينـ بـمـجـمـلـهـمـ لـيـسـ لـدـيـهـمـ مـكـانـ لـلـنـزـوحـ إـلـيـهـ، وـحـيـثـ اـمـتـلـأـ مـاـ تـوـفـرـ مـنـ مـدارـسـ وـأـمـاـكـنـ عـبـادـةـ، بـلـ وـحـتـىـ سـجـونـ، بـأـعـدـادـ ضـخـمـةـ تـزـيـدـ عـنـ طـاقـتـهـاـ الـاسـتـيـعـابـيـةـ، بـالـنـازـحـينـ، لـمـ يـتـبـقـ لـلـآخـرـينـ سـوـىـ "ـالـلـامـكـانـ"ـ لـلـجـوـءـ إـلـيـهـ. وـتـسـأـلـ نـائـبـ مـنـسـقـ الـشـؤـونـ الـإـنـسـانـيـةـ الـإـقـلـيمـيـ لـلـأـزـمـةـ الـسـورـيـةـ التـابـعـ لـلـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ، مـارـكـ كـتـسـ: "ـإـلـىـ أـيـنـ يـتـجـهـ هـذـاـ الـعـالـمـ، إـنـ لـمـ يـكـنـ قـادـرـاـ عـلـىـ تـأـمـيـنـ حـمـاـيـةـ لـثـلـاثـةـ مـلـاـيـنـ بـشـرـيـ يـقـطـنـونـ إـدـلـبـ وـمـحـاـصـرـيـنـ بـالـحـرـبـ؟ـ، وـذـلـكـ بـعـدـ أـنـ وـجـهـ نـدـاءـاتـ مـنـ أـجـلـ تـحـرـُّكـ دـولـيـ بـشـأنـ الـأـزـمـةـ فـيـ سـورـيـةـ، إـلـاـ أـنـ نـدـاءـاتـهـ لـمـ تـجـدـ صـدـىـ لـدـىـ أـحـدـ. وـفـيـ هـذـهـ الـأـجـوـاءـ، ذـكـرـتـ صـحـفـ غـرـبـيـةـ أـنـ مـنـ الـواـضـحـ أـنـ الـعـالـمـ، وـالـحـكـومـاتـ الـغـرـبـيـةـ بـالـتـحـدـيدـ، قـرـرـوـ إـلـاءـ الـمـأـسـاةـ الـإـنـسـانـيـةـ فـيـ الشـمـالـ الـسـوـرـيـ الـأـذـنـ الـطـرـشـاءـ لـدـوـافـعـ أـنـانـيـةـ، فـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ تـخـوـفـهـمـ مـنـ أـزـمـةـ لـجـوـءـ جـدـيـدـةـ إـلـىـ أـوـرـوـبـاـ.

وـبـدـاـ وـاـضـحـاـ، مـنـ الـأـيـامـ الـأـوـلـىـ لـلـمـعـرـكـةـ، أـنـهـ سـتـسـفـرـ عـنـ تـفـاهـمـاتـ جـدـيـدـةـ، وـسـتـذـهـبـ بـتـفـاهـمـاتـ قـدـيـمـةـ بـيـنـ الـلـاعـبـينـ الـإـقـلـيمـيـينـ حـوـلـ سـورـيـةـ وـحـوـلـ إـدـلـبـ تـحـدـيدـاـ. كـمـاـ مـنـ الـمـمـكـنـ أـنـ تـغـيـرـ مـنـ خـرـيـطـةـ الـمـعـارـضـةـ الـعـاـمـلـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ؛ـ إـذـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـونـ أـوـلـ هـذـهـ التـغـيـرـاتـ وـأـغـرـبـهـ، إـلـاعـنـ هـيـئـةـ تـحـرـيـرـ الشـامـ (ـجـبـهـةـ النـصـرـةـ سـابـقـاـ)، حلـ نـفـسـهـاـ فـيـ ذـرـوـةـ الـمـعـارـكـ، فـقـدـ تـوـاتـرـتـ الـأـنـبـاءـ عـنـ حـلـ الـهـيـئـةـ ذـرـاعـهـاـ الـمـدـنـيـ، تـمـهـيـدـاـ لـحـلـ ذـرـاعـهـاـ الـعـسـكـرـيـ، وـسـتـخـيـرـ أـعـضـاءـهـاـ بـيـنـ تـسـلـيمـ أـسـلـحـتـهـمـ الـفـرـديـةـ أـوـ الـاحـفـاظـ بـهـاـ وـالـانـضـمـامـ إـلـىـ الـفـصـائـلـ الـمـسـلـحـةـ الـأـخـرـىـ لـلـمـقـاتـلـةـ تـحـتـ جـنـاحـهـاـ. إـنـ صـحـ ذـلـكـ، رـبـماـ تـهـدـفـ الـهـيـئـةـ مـنـ الـخـطـوـةـ سـحـبـ ذـرـيـعـةـ مـحـارـبـةـ الـإـرـهـابـ، الـمـمـتـلـلـ بـالـهـيـئـةـ، مـنـ الـجـيـشـ الـنـظـامـيـ وـمـنـ الـقـوـاتـ الـرـوـسـيـةـ لـتـجـنـيـبـ الـمـدـيـنـةـ مـعـرـكـةـ غـيـرـ مـحـسـوـبـةـ الـعـوـاقـبـ. كـمـاـ أـنـ تـجـرـيـدـ الـفـصـائـلـ الـمـعـارـضـةـ فـيـ إـدـلـبـ مـنـ أـسـلـحـتـهـاـ كـانـ بـنـدـاـ فـيـ اـتـفـاقـ سـوـتـشـيـ، وـتـعـهـدـتـ تـرـكـيـاـ بـتـحـقـيقـ هـذـاـ الـمـطـلـبـ فـيـ مـقـابـلـ أـنـ تـمـتـنـعـ قـوـاتـ الـنـظـامـ وـالـقـوـاتـ الـرـوـسـيـةـ عـنـ شـنـ هـجـومـ عـلـىـ إـدـلـبـ. وـأـدـىـ شـنـ الـجـيـشـ الـنـظـامـيـ الـسـوـرـيـ، مـدـعـوـمـاـ بـقـوـاتـ رـوـسـيـةـ الـهـجـومـ عـلـىـ إـدـلـبـ، إـلـىـ تـدـخـلـ الـجـيـشـ الـتـرـكـيـ لـحـمـاـيـةـ الـمـدـنـيـينـ، وـضـمـانـ سـرـيـانـ اـتـفـاقـ سـوـتـشـيـ، لـأـنـ تـرـكـيـاـ تـخـافـ خـرـقـ الـاـتـفـاقـ، وـتـسـبـبـ الـمـعـارـكـ بـمـوـجـةـ نـزـوـحـ، رـبـماـ بـالـمـلـاـيـنـ، لـيـسـتـ أـنـقـرـةـ فـيـ وـضـعـ يـسـمـحـ لـهـاـ بـالـتـعـاـمـلـ مـعـهـاـ الـتـعـاـمـلـ. الـمـطـلـوبـ.

وـفـيـ حـيـنـ بـرـرـتـ الـحـكـومـةـ الـسـوـرـيـةـ هـجـومـهـاـ عـلـىـ إـدـلـبـ بـأـنـ اـتـفـاقـ سـوـتـشـيـ الـخـاصـ بـالـمـدـيـنـةـ لـمـ يـطـبـقـ، وـخـصـوصـاـ مـنـهـ الشـقـ الذيـ يـتـعـلـقـ بـفـتـحـ الـطـرـقـ الـدـولـيـ الـتـيـ تـرـبـطـ حـلـ بـدـمـشـقـ، بـسـبـبـ اـسـتـمـرـارـ سـيـطـرـةـ الـفـصـائـلـ الـعـسـكـرـيـةـ الـمـعـارـضـةـ عـلـىـ أـقـسـامـ مـنـهـاـ فـيـ رـيفـ الـمـدـيـنـةـ، وـتـقـيـيـدـ حـرـكـةـ الـمـرـورـ عـلـيـهـاـ، تـقـوـلـ تـرـكـيـاـ إـنـ الـهـجـومـ الـأـخـيـرـ يـعـدـ خـرـفـاـ لـهـذـاـ الـاـتـفـاقـ. وـمـنـ هـنـاـ بـرـزـ الـخـلـافـ بـيـنـ رـوـسـيـاـ وـتـرـكـيـاـ، مـاـ اـسـتـدـعـيـ لـقـاءـاتـ عـدـةـ بـيـنـ مـسـؤـولـيـ الـبـلـدـيـنـ، لـلـتـوـصـلـ إـلـىـ تـفـاهـمـاتـ بـدـتـ صـعـبـةـ، وـمـنـ ثـمـ أـدـىـ إـلـىـ إـجـراءـ

اتصالات هاتفية بين الرئيسين، الروسي بوتين والتركي أردوغان. وقد اشتَمَت أميركا أن الخلاف بين الطرفين جديٌّ، وهو من الجديّة بحيث يمكنها التعميل عليه لدفع تركيا إلى التخلّي عن التسلّح بالأسلحة الروسيّة، وخصوصاً منها أنظمة "أس 400" للدفاع الجوي.

واضحُ أن معركة إدلب الجاربة لن تكون مثل غيرها من المعارك بين المعارضة المسلحة وقوات النظام والقوات الحليفة لها، من حيث تداعياتها على العلاقة بين المتدخلين في الحرب السوريّة، خصوصاً روسيا وتركيا، وأميركا وتركيا، وربما ستتساءل العلاقة بينهم في المقبل من الأيام بسماتٍ تختلف عما قبلها. وواضحُ أيضاً أن الغرب قرر أن يغمض عينيه عن المأساة التي يعيشها المدنيون السوريون الذين نزحوا إلى المجهول. وهو بذلك لا يكون قد قرر النأي بنفسه عن هذا الصراع، اتقاءً لبعاته عليه، بل يكون قد قرر أن ينأى عما يدعّيه من مناصره حقوق الإنسان أينما كان.

المصادر:

العربي الجديد